التّطبيق (1): تحليل نصوص من كتاب (فقه اللّغة في الكتب العربيّة) لعبده الرّاجحي، وكتاب (الأصول: دراسة إبستيمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب: النّحو–فقه اللّغة– البلاغة) لتمام حسان.

النّص الأوّل: قال عبده الرّاجحي في كتابه (فقه اللّغة في الكتب العربيّة): "عرفت الدّراسات اللّغويّة في جامعاتنا مصطلح (فقه اللّغة) ثمّ عرفت مصطلح (علم اللّغة). ولم يسلم استعمال المصطلحين من خلط أدّى إلى اضطراب في فهم كلّ علم وفي تحديد ميدانه، فرأينا من يكتب كتابا في (فقه اللّغة) وهو يعني علم اللّغة، مع شيء من التّوسّع في استعمال هذا المصطلح؛ إذ يعرض فيه لبحوث تتعلّق بحياة اللّغة وما يطرأ عليها من تغيّرات، ولبحوث تتعلّق بدراسة الأصوات الّتي تتألّف منها اللّغة ولبحوث تتعلّق بدراسة اللّغة من حيث دلالتها... إلخ. ثمّ رأينا من يكتب كتابا في (فقه اللّغة) ويقرنه بعنوان توضيحيّ، هو (دراسة تحليليّة مقارنة للكلمة العربيّة) ويعرض فيه للأصوات اللّغويّة، وللاشتقاق وللأبنية والأوزان، ومعاني الألفاظ. ثمّ كتب الدّكتور صبحي الصّالح كتابه (دراسات في فقه اللّغة) فعرض فيه للعربيّة بين أخواتها السّامية، وخصائص العربيّة، من إعراب ومن ومناسبة حروف العربيّة لمعانيها، ومن المناسبة الوضعيّة وأنواع الاشتقاق ومن النّحت أو الاشتقاق الكبّار... إلخ. وأخيرا كتب الدّكتور إبراهيم السّامرّائي كتابه (فقه اللّغة المقارن) جمع فيه مجموعة من المقالات المتنوّعة، يشمل بعضها موضوعات عامّة، كالعربيّة بين الجمود والتّطوّر والتّوليد، والثّقافة العربيّة والإقليميّة، ويشمل بعضها الآخر موضوعات خاصّة، كالفعل والنّظام الفعليّ في العربيّة، والنّون والميم في اللّغة العربيّة... إلخ.

وقد أدّى ذلك كلّه إلى لبس غير هيّن لدى الطّلاب خاصّة، ولدى دارسي اللّغة على وجه العموم؛ خاصّة أنّ معظم هؤلاء الكتّاب قد سوّى بيّن (فقه اللّغة) و(علم اللّغة) فالدّكتور وافي لا يفرّق بينهما تفريقا واضحا، حتى إنّهما يكادان يكونان شيئا واحدا غير أنّ (فقه اللّغة) عنده يختصّ بالبحوث المتّصلة بالعربيّة وحدها، يقول: (أمّا بحوث علم اللّغة نفسه، فقد درس المؤلّفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم (فقه اللّغة) وهذه التّسمية هي خير ما يُوضَع لهذه البحوث؛ فإنّ فقه الشّيء هو كلّ ما يتّصل بفلسفته، وفهمه، والوقوف على ما يسير عليه من قوانين. فقد قال صاحب المصباح: (الفقه فهم الشّيء) وقال ابن فارس: (كلّ علم لشيء فهو فقه). وقد كنّا نودّ أن نسمّي كتابنا هذا باسم (فقه اللّغة) لولا أنّ هذا الاسم قد خصّص مدلوله في الاستعمال المألوف، فأصبح لا يُفهم منه إلا البحوث المتعلّقة بفقه العربيّة وحدها).

ويقرّر الأستاذ محمّد المبارك (أنّ علم اللّغة بهذا المفهوم الّذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في تطوّر البحث اللّغويّ، نرى أنْ نُطلق عليه أحد الاسمين (علم اللّغة) أو (فقه اللّغة) وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلميّ لمباحث اللّغة ... هذا وإنّنا باستعمالنا هذه التّسمية، وإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين، نكون قد جارينا قدماءنا الّذين استعملوهما كليهما، وأصابوا كلّ الإصابة في ذلك. ويقرّر الدّكتور صبحي الصّالح أنّه (من العسير تحديد الفروق الدّقيقة بين علم اللّغة وفقه اللّغة؛ لأنّ جلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشّرق والغرب، قديما وحديثا، وقد سمح هذا التّداخل أحيانا بإطلاق كلّ من التّسميتين على الأخرى ... وإذا التمسنا التّفرقة بين هذين الضّربين من الدّراسة اللّغويّة، من خلال التّسميتين المختلفتين اللّتين تطلقان عليهما، وجدناها تافهة لا وزن لها ... وإنّه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين، ألا يستبدلوا بهذه التّسمية القديمة شيئا؛ أي فق اللّغة، وأنْ يعمّموها على جميع البحوث اللّغويّة؛ لأنّ كلّ علم لشيء فهو فقه، فما أجدر هذه الدّراسات جميعا أنْ تُسَمَّى فقها.

على أنّ جمهرة باحثينا الذين اتّصلوا بعلم اللّغة في مناهجه الحديثة، يلفتون إلى الفرق الواضح بين (علم اللّغة) و(فقه اللّغة).

هناك إذن فريقان؛ فريق يسوي بين (فقه اللّغة) و(علم اللّغة) وآخر يفرّق بينهما، لكنّ المشكلة ظلّت باقية في قاعات الجامعة، وفي الأبحاث اللّغويّة على العموم؛ لأنّ الفريق الأوّل اتّصل –في الأغلب الأعمّ– بالمنهج العربيّ القديم، ولم يتّصل اتّصالا وثيقا بالمنهج الحديث الّذي طوّره الغربيّون، حتّى كاد يسود كلّ الكتابات التي ظهرت لأصحابه، مكتفين بتوجيه النّقد للمنهج العربيّ حتّى صار ذلك نغمة محبّبة لدى الطّلاب والباحثين النّاشئين. وكلا الاتّجاهين ناقص لا جدال؛ لأنّا نؤمن أنّ درس المنهج اللّغويّ عن العرب على أساس شامل لم يتم حتّى الآن، ولأنّ تطبيق المنهج الحديث على العربيّة –دون درسها هذا الدّرس الشّامل– فيه قدر ضئيل من مجافاة المنهج العلميّ."

عبده الرّاجحي، فقه اللّغة في الكتب العربيّة، ص09–11.

النّص الثاني: قال تمام حسّان في كتابه (الأصول): "عرف الأوربيّون اللّغة السّنسكريتيّة بعد المقال الذي كتبه عنها السّير وليام جونز (1746–1794) مبيّنا أوجه الشّبه بينها وبين اللّغات الإغريقيّة واللاتينيّة، والقوطيّة، مُعْلِنا عن اعتقاده أنّ هذه اللّغات جميعا انحدرت من أصل واحد. عندئذ فطن اللّغويون إلى وجود علاقات تركيبيّة بين أفراد فصيلة من اللّغات أطلقوا عليها اسم (اللّغات الهندوأوربيّة)

فأوضحوا الصّلة فيما بينها بواسطة دراسات مقارنة أطلقوا عليها اسم (الفيلولوجيا المقارنة) أو (Comparative Philology) فظلّ مصطلح الفيلولوجيا مرتبطا بمفهوم اللّغات القديمة.

وتعتبر الفيلولوجيا هي الأصل الّذي تفرّع عنه علم اللّغة أو اللّسانيات (Linguistics) في أوربا كما تُعتبَر الأنثروبولوجيا هي ذلك الأصل بالنّسبة للدّراسات اللّغويّة الأمريكيّة ... على أنّ الفيلولوجيا بهذا المعنى الذي أصبح فيما بعد يُعرَف باسم (علم اللغة) اتّجهت اتّجاها آخر، لم يقنع الدّارسون فيه بالنّصوص القديمة والوثائق فقط، ولم يصبحوا مرتبطين بالقدم وحسب، وإنّما حولوا (تحليل النّصوص) إلى (مقارنة الظّواهر) ثم تخطوا الظواهر التاريخية بأن ضموا إليها وصف الأنظمة القائمة باللغات الحيّة –هكذا– كانت نشأة علم اللّغة من منطلق (الفيلولوجيا) ولكن علم اللّغة إن لم يتحلّل تماما من فكرة (القدم) أو فكرة (المقارنة) فقد أضاف إليهما فكرتي (المعاصرة) و(الوصف) ووضع القدم والمعاصرة جنبا إلى جنب، وخصص لكل منهما منهجا، فالقدم والتّحول (Diachronic) يدرس بمنهج تطوّريّ تاريخيّ والمعاصرة والثّبات (Synchronic) تدرس بمنهج وصفيّ، أشبه ما يكون بمناهج العلوم الطبيعية، بل إنه يستعين بحقائق هذه العلوم. وهكذا انتفع علم اللغة بمناهج العلوم الأخرى من حوله، حتى استطاع أن ينشئ لنفسه طريقة خاصّة في النّظر إلى موضوعه، وأصبح بحق يستحق أن يعرف بأنه (الطريقة العلمية لدراسة اللغة) واستقل علم اللغة بعد أن كان موضوعه في الماضي يدور في فلك الكتب المقدسة كما في السنسكريتية، أو في فلك الفلسفة الإغريقيّة، أو في حظيرة الأدب ونقده، كما حدث في لغات أخرى، وهلمّ جرا. وأسقط علم اللّغة من موضوعه ما لا يمكن أنْ يخضع للنّظر العلميّ، كالكلام في أصل اللّغة؛ أتوقيف ذلك أم اصطلاح، وكالكلام في تقويم اللّغات وتفضيل بعضها على بعض، وكالكلام في موضوعات تتّصل بالسّحر والشّعوذة، وتنسب قوى غيبيّة للكلمات. تلك موضوعات كان على علم اللّغة أن يستبعدها من التراث الذي ورثه من أفكار الأقدمين."

تمام حسّان، الأصول: دراسة إبستيمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب: النّحو–فقه اللّغة– البلاغة، ص235–238.

السّؤال– حلِّل النَّصَّين مفرقا بين علم اللّغة، وفقه اللّغة، والفيلولوجيا؛ من حيث الموضوع والمنهج، والهدف أو الغاية، معتمدا على ما درست في المحاضرة؟